المصطلح العربي الحضاري والتراثي:
قضايا ومقاربات

أ.د. محمد رشاد الحمزاوي (*)

1-1 إن موضوع ندوتنا في شكله المعروض علينا يوحي بقراءات وتخريجات كثيرة. فهل المراد منه دراسة مقارنة بين الصنفين من المصطلحين، لتحديد منـــزلة كل واحد منهما كمّاً وكيْفاً من رصيدنا المصطلحي العربي المعاصر؟ أو البحث عن صلات تفاعلهما تنافراً أو تكاملاً؟ أو ضبط كمّية المصطلح الحضاري المستمدّة من المصطلح التراثي، لا سيما وأن "التراثي" جاء في مرتبة ثانية بعد "الحضاري"، وكنت في هذه الحالة أنتظر أن يسبق التراثي الحضاري لأسباب واضحة. لا علينا ! ما دام باب القراءات مفتوحاً على "مَصَارِعه" المختلفة.

1-2- والملاحظ أننا أمام قضية، كثيراً ما تطرح في شكل معركة تفاضلية بين المفهومين، يخشى منها أن تؤول إلى انفصامية ترفض في شكلها الإطلاقي كل مصالحة مبررة، أساسها التواصل بين حقب متتابعة مترابطة، توفق بين هواجس الثقافة ومتطلبات الحضارة أي بين ما تبقى في الذاكرة من الثوابت المتنوعة إلى حد التنافر، وما يهاجم الفكر والفعل من المتحولات التي تزعزع كياننا المعيش، مما يوحي أحياناً بالمطالبة بضرورة القطع الفاصل بين قدسية التراث ولائكية الحضارة، حتى نخرج من هذه المعركة القديمة الحديثة، على غرار أوربا، التي نَزَّلت المهندس منـــزلة القِسِّ، وأقامت العلوم العقلية مكان العلوم النقلية، حتى تصبح قضية المصطلحات، وبالأحرى الرؤى والمفاهيم، موضوعية تجريبية مطبقة.

3.1 ولا شك في أن الصواب عندنا يستوجب منا أن نقارب هذه القضية التي مازالت قائمة من بداية النهضة إلى اليوم، مقاربة وصفية نقدية لعلنا نفوز باقتراحات مبررة ومقنعة قابلة للتطبيق حسب منهجية متفق عليها ولو نسبياً.

فما عسانا نقول في هذا الشأن؟ لا بد أن نُقِّر أساساً أن التراثية ومنـــزلتها من العلوم والمعارف ليست من خصائص ذهنيتنا العربية الإسلامية حتى نحاسب عليها حساباً عسيراً، لأن الذهنية الغربية، أوروبية أو أمريكية، على سبيل المثال، وما لفَّ لفّها، قد عادت إلى التراث اليوناني واللاتيني لبناء مصطلحاتها، من رؤى ومفاهيم وصدور وأحشاء ولواحق يونانية لاتينية ثرية كمّاً وكيْفاً [1] ،لأداء شتى المصطلحات العلمية والفنية والتكنولوجية إلى يوم الدين هذا. فأقرت "اختراعاً" لسانياً فكرياً ممنهجاً مَبْنِيّاً على ثنائية متلازمة في عنصريها: الْمَعْنَى تراثي والمعْنَى حضاري حداثي. فكانت القفزة عقلية عملية، علمياً ولغوياً، وما زالت متواصلة، يعززها زاد من المفاهيم المستحدثة والمناهج المتجددة باعتبار أنّ كل لغة ما انفكت تضيف إلى ذلك

(*) باحث في المصطلحية والمعجمية- الجامعة التونسية

التراث من الصدور والأحشاء واللواحق ما يدل على حركيتها. [2]

1-4- ولقد بلغ الإعجاب بذلك التراث حتى نادى الشاعر André chenier بـــ: Sur des pensers nouveaux, faisons des vers antiques[3] فضلاً عما أخذه أهل حضارته من مصطلحات يونانية مثل: Democratie (حكم الشعب) و Téléphone (نداء عن بعد – الهاتف) و Prophylaxie (الوقاية) من Prophylaktikos (حرس المدينة) و Avion من Avis اللاتينية أي الطائر و Moteur أي محرك ...إلخ. وهي آلاف مؤلفة من الكلمات العامة أو المطورة مجازياً سلطت عليها منهجيات مشتركة مُقَيَّسَة فرزتها وصنّفتها ثم خصّصتها وأدرجتها في نَظْمَنَة آلية [4] لها مفاهيم ثابتة أحادية المعنى فأكثر، لا تحيد عنها. من ذلك أنّ الصدر أو السابقة "A" الذي يسبق كل جذر، يفيد النفي المعبر عنه بالعربية بـــ: / لا، وغير، وعدم/ وعدم/، كما يفيد معنى الحيّاد. فكلمةApodal تعني لا قدمي و Aposporié تعني لا جرثومي، أما Amoral فهي تعني "حيادي أخلاقياً "خلافا لـــ immoral بمعنى "لاأخلاقي". وهلم جرا.

5.1- فكيف لا تكون العربية في نفس الوضعية أو أحسن، إن اعتبرنا قول حافظ إبراهيم عندما نَزَّل لغة القرآن مصدراً للتراث.

وسِعْت كتاب الله لفظاً وغايةً
وما ضِقْت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة
وتنسيق أسماء لمخترعات ؟

مما يعني أن معجزة حضارتنا كانت وما زالت كلامية اصطلاحية، وقد خلق الله الإنسان علمه البيان وأقدره على كل الأسماء، على حد تخريج ابن جني في خصائصه للآية "وَعلَّمَ آدامَ الأسماء كُلَّها". [5]

ولقد بادرت الحركة السلفية النيرة المعتدلة، برفع راية العودة إلى التراث ورصيده الاصطلاحي وتنـــزيله منـــزلة المرجع والقدوة مبدئياً، لمواجهة غزو العلوم الحديثة والتفاعل معها، دون الوقوف في وجه كل وسائل الوضع والتجديد الممكنة والمحتملة. فلقد كان الشيخ محمد عبده ممن بادروا بتحقيق ونشر مخصص ابن سيده الأندلسي، كما نصت على ذلك الورقة المعلنة عنه والصادرة عن جمعية إحياء العلوم العربية بالقاهرة سنة 1904. وقد فتح هذا الباب كثير من أهل النهضة، نذكر منهم الشيخ محمد بن عمر التونسي (1274هـ/1867م) في معجمه الكبير "الشذور الذهبية في الألفاظ الطبية" انطلاقاً من التراث للتعبير عن مستلزمات العصور الحديثة.

1.2 وأيدت المجامع العربية الحديثة، بدمشق (1919)،والقاهرة (1934)، وبغداد (1948)، وغيرها من المؤسسات العلمية واللغوية العربية [6] ، هذا الاتجاه، في سعيها إلى ضبط وسائل وضع المصطلح العربي المعاصر ، فرتبتها ترتيباً نَزَّلت فيه توظيف المصطلحات التراثية منـــزلة التفضيل قبل الاشتقاق والمجاز والتعريب. فلقد جاء في لائحة مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة 1934 ما يلي: " أن تستبدل بالكلمات العامية والأعجمية التي لم تعرب غيرها من الألفاظ العربية وذلك بأن يبحث أولاً عن ألفاظ عربية لها في مظانها. فإن لم يجد بعد البحث أسماء عربية لها، وضع أسماء

جديدة بطرق الوضع المعروف، من اشتقاق أو مجاز أو غير ذلك. فإذا لم يوفق التجأ إلى التعريب، مع المحافظة على حروف اللغة وأوزانها بقدر الطاقة." [7]

2.2 ويلاحظ غياب النحت وغبنه من وسائل الوضع، وإن كان ابن فارس في معجم "المقاييس التراثي المغبون أيضاً،قد بيّن أنه أساس الاشتقاق الصغير [8]، ومن ذات العربية، أكثر من المعرَّب والدخيل، فضلاً عن أن المجاز المذكور في اللائحة السابقة هو من التراث، إذ يقتصر في جله على اعتماد كلمات ومفاهيم قديمة وتطوير معانيها، للتعبير عن المستحدثات المعاصرة، كما هو الشأن في الإنكليزية والفرنسية، إن كان بين المصطلحين تشابه مع قرينة مانعة. فالسيّارة تفيد في القرآن الكريم القافلة من الإبل، وتفيد اليوم المركبة الحديدية البترولية. فهما وسيلتا نقل وتنقل وسرعة مع اعتبار أنّ الأولى حيوانية والأخرى ميكانيكية.

3.2 وأكدت كل المؤتمرات اللغوية هذه الاختيارات العامة، ومنها ندوة الرباط لتوحيد منهجية وضع المصطلحات الجديدة بتاريخ 18-1981/2/20، بإشراف مكتب تنسيق التعريب، حيث جاء في توصياتها في شأن المبادئ الأساسية في اختيار المصطلحات العلمية ووضعها:

1-استقراء وإحياء التراث العربي وخاصة ما استعمل منه أو ما استقر منه من مصطلحات علمية عربية صالحة للاستعمال الحديث وما ورد منه من ألفاظ معربة(المبدأ الأول).

2-استخدام الوسائل اللغوية في توليد المصطلحات العلمية الجديدة بالأفضلية، طبقاً للترتيب التالي: التراث فالتوليد (بما فيه من مجاز واشتقاق وتعريب ونحت (المبدأ السادس).

وتُبرز هذه المبادئ مدى تعلق المؤسسات المتخصصة[9] بالتراث والتراثية، مع اعتراف متحذّر بالتراث المعرب والنحت، حرصاً على رفض كل ما من شأنه أن يوحي بتلوث اللغة، حتى ولو أدّى إلى الترادف أو الغموض، على حساب المفهوم، طبيعةً ووظيفةً. فلقد آثر بعضهم أن يترجم Linguistique Générale بمصطلحي "فقه اللغة" و"علم فقه اللغة" التراثيين، على ما لهما من تخالف مع اللسانيات الجديدة التي تُرجمت بما يقرب من عشرين [10] مصطلحاً مختلفاً.

4.2 والأمثلة من هذا القبيل كثيرة تفيد، في أغلب مظاهرها، أنها تنبع من غنائية تعويضية انعزالية تخشى الحديث – ومنه الحضاري- و"بدعه" وبالتالي مفاهيمه و متطلباته التي تزعزع التقاليد والذات الراضية المطمئنة؛ وإن كان التراثي نفسه، في أيام عزته وريادته، لم "يخش الخلاف في المفهوم الواحد. فلقد قال القدماء بالاستصحاب والاستصلاح، وبالتقية والاتقاء والموضوع والمحمول،وما وراء ذلك من مذاهب وخلاف فيه رحمة.

والأطروحة التراثية، في شكلها المبَسَّط،تبدو غير متحكمة في وسائلها لتبرير رؤياها. فهي لم تزودنا، إلى يومنا هذا، بمدونات مصطلحية جامعة شاملة لجميع علوم التراث حتى يستمد منه ما يمكن أن يوظف حضارياً. فالحكم على الشيء أوله فرع عن تصوره، استقراءً واستيعاباً. فكيف يمكن أن نبت في مفهوم الفصاحة وصلتها بالأسلوبية والمدلول عند ما نعلم أنّ المؤلفات التراثية المخصّصة للفصاحة في التراث قد بلغت

116 كتاباً منها 41 مخطوطاً أو مطبوعاً والباقي مفقود مغبون؟[11]

5.2 وقس على ذلك في شتى العلوم التراثية الأخرى التي لم تحظ إلاّ بدراسات قليلة جادت بها أعمال غوانشون وسهيل أفنان، ومحمد السويسي، وإبراهيم بن مراد، وأعمالنا في ميدان المعجمية العربية.[12] ولقد سبق لنا أن ضربنا أمثلة مطبقة ، لهذه الغنائية، من خلال أمثلة مستمدة من مخصص ابن سيده،[13] ومستعملة في مؤلفات بعض المشاهير من المعاصرين الذين أكدوا بالقول ضرورة تفضيل التراث على المستحدث الفصيح والمعرب والدخيل والمنحوت، من دون أن يكون لذلك تطبيق يشفي الغليل في مؤلفاتهم. فلقد اعتمد مصطفى الشهابي في معجم "الألفاظ الزراعية" 19 مصطلحاً من ابن سيده،من مجموع 9996 مدخلاً تقريباً، وأخذ منه أحمد عيسى في"معجم النبات" 9 مصطلحاته ، من مجموع 5825 مَدْخَلاً. أما أمين المعلوف، فلقد استعمل في "معجم الحيوان" 35 مصطلحاً من مجموع 1428 مدخلاً.

1.6-فإن جمعنا المصطلح التراثي، المأخوذ من ابن سيده في المعاجم الثلاثة السابقة، لوجدناه لا يتجاوز 63 مصطلحاً مدخلاً، من مجموع 17.249 مدخلاً، ويمثل 3ر000 تقريباً من المائة، وهي نسبة ضئيلة للغاية، مما يعني — حسب هذه الظاهرة- أننا أمام غنائية تعويضية تستعمل منظومة التراث، في شكلها المعروض هنا، ما عُونَ صنعة كما يقال في تونس، وللتراثي، حتى وإن تعلقنا به، قضايا كثيرة عويصة لا بد أن نقدرها حق قدرها، منها:[14].

أ- مطابقة التراثي للحضاري المعاصر من حيث طبيعته ووظيفته، فضلاً عن تداخله وانقسامه على ذاته من ذلك أنّ النبتة (la grande mauve) هي "الدهماء" عند أحمد عيسى، رواية عن ابن سيده، وهي عند الشهابي "الخبازة البرية أو الحرجية". أما الطائر (gypaete) فهو لم يسلم من آفة الترادف عند أحمد عيسى الذي يُعيِّنه بالمصطلحات التالية: "الستل" المأخوذ من ابن سيده ويضيف إليه: البُلاَجُ، والبُلاَتُ، والمكَلَّفه والفَيَّنَهُ؛ ويسميه الشهابي "كاسر العظام والمكَلَّفَه".

2.6 فما عسانا نختار، لا سيما وأنّ ندوة الرباط، السابقة الذكر، قد أقرت مبادئ تفضيل التراثي وتجنب النافر والمحظور من الألفاظ، وتحبيذ الكلمة التي تسمح بالاشتقاق على الكلمة التي لا تسمح به؛ وفي حالة الترادف أو القريبة من الترادف، تفضل اللفظة التي يوحي جذرها بالمفهوم الأصلي بصفة أوضح... وهلم جرا. مما يستدعي في نهاية الأمر وضع مبادئ وهوامش لتفسير تلك المبادئ الأولى والمصالحة بين متناقضاتها.

ويعود السبب في هذا الاضطراب المنهجي والمفهومي إلى أننا لم نوفر الأرضية الأساسية للتراث حتى ينـزل حق منـزلته سواء أكانت إيجابية أم سلبية. وهي تتلخص في النقاط التالية:

أ- التخلص من الغنائية التراثية التحليلية المفرطة ومتاهاتها، بدون الاحتكام إلى التاريخ الأدبي والعلمي ونصوصه المطبوعة والمخطوطة وحتى المغبُونة والمفقودة.

ب- استقراء التراث في رؤاه العامة وفي جزئيا ته المتخصصة، في نطاق مشروع قومي عربي إسلامي يقدم لنا رصيده في مدونة جامعة شاملة تجعلنا نقيس الحاجة إليه على قدر ما يوفره من زاد حقيقي لا يرتكز على

التخمينات والغيبيات. والجامعات والمؤسسات العلمية مدعوة، كل في نطاقها، إلى الإسهام في المشروع المعني بما يلي:

1- ضبط ميادينه وعلومه ومؤلفاته، مطبوعة أو مخطوطة أو مفقودة.

2- تخصيص دراسات جامعية له، في شكل رسائل مفردة أو بحوث معمقة أو رسائل جامعية عالية، حسب العصور ومناطق العالم العربي الإسلامي.

3- الاهتمام بمفاهيمه ومصطلحاته، دون إقصائية لغوية مذهبية أو اجتماعية نخبوية، سواء أكانت تلك المصطلحات فصيحة أم معربة أم دخيلة أم منحوتة أم شعبية.

3.6 فلقد ظل مفهوم النحت مغبوناً مدحوراً في العربية لمدة 14 قرناً حتى حقّق عبد السلام هارون في الخمسينات "مقاييس اللغة" لابن فارس، لنكتشف نظرية عربية في النحت قد سبقت، بقرون، التأسيس النظري للنحت في اللسانيات الأوروبية والأمريكية والروسية. وذلك شأن كتاب العين للخليل[15] ومكانته من اللسانيات الحديثة لا سيما النظرية التحويلية التوليدية.

3- توظيف التراث توظيفاً منهجياً علمياً حتى يصبح زاداً فعالا في ربط التواصل بين الثقافة والحضارة، كما هو الشأن في كل الحضارات الرائدة، وذلك بتركيزه على نظمته، تجنباً لمتاهات الترادف والتداخل، كما أشرنا إلى ذلك أعلاه.

4.6- وهنا نصل إلى المصطلح الحضاري. إن الدراسات التي قدمت للندوة منها ما نزله منـــزلة المصطلح المعاصر، إن لم نقل الغربي الأمريكي، فضلاً عن كونه المصطلح العلمي الذي يخرج من محيطه الضيق المتخصص إلى محيط عام يكاد يكون دارجاً، دون أن نعرف إن كان فصيحاً أو معرباً أو شعبياً، وذلك من شأنه أن يدعو إلى تساؤلات كثيرة تتطلب التوفيق بينها، ومنها:

أ) المفروض أن المصطلح التراثي العلمي المنتظر القابل للتعبير عن المفاهيم الحضارية، يدخل في الرؤية ويعامل كما يعامل المصطلح الحضاري الغربي المعرب، والمترجم والموضوع، ما دام معبراً عن شؤون الحضارة المعاصرة.

ب) المصطلح الحضاري كثيراً ما يخرج من صيغته العلمية إلى الحضارية إلى الشعبية. وعلى هذا الأساس تعلقت اللسانيات والمعجميات الغربية، خلافاً للصنف "الحضاري ←— التراثي" بالصنف العلمي ←— الشعبي" أو العكس بالعكس.

5.6 ولقد سبق للعشابين العرب والمسلمين مثل ابن البيطار في مفرداته، أن اعتنوا بهذا التفاعل وتعاكسه؛ وعلى أثرهم سار المتخصصون العرب، مثل مصطفى الشهابي وأحمد عيسى،فلقد ترجم هذا الأخير (Cadaba Farinosa) العلمية اللاتينية بالمفردة الفصيحة العربية " السرح" رواية عن ابن سيده؛ إلاّ أنه أطلق عليها أسماء حضارية وشعبية مثل: قرة والطريح والعسل. أمّا الشهابي فهو يفيدنا أن أهل الشام ومصر أطلقوا على شجرة بوغنفلية (Brigainvillea) الاسترالية، اسما يلفت النظر وهو "الجَهَنَّمية". وكلنا يعلم أن الطماطم في المغرب العربي، والبندورة، في المشرق، مأخوذتان من لغة قبيلة الأزتاك بأمريكا ومن الإسبانية والفرنسية (Pomme d'or) أي التفاحة الذهبية. أما (Patates) بالفرنسية،و (Potatoes) بالإنجليزية، والبطاطة بالعربية

فهي مأخوذة من لغة قبيلة الأرواك بأمريكا، ويعبر عنها شعبيا كذلك بـــ (Pomme de terre) بالفرنسية؛ أي "تفاح الأرض" ، فضلاً عن اسمها العلمي اللاتيني Solanum Tuberculum.

والملاحظ، في نهاية المطاف،أن هذه القضية كانت وما زالت مستبدة بذهنيتنا معرقلة لها ما لم تحسم حسما منهجيا موضوعياً، قد أشرنا إليه مراراً في مؤلفاتنا وفي صلب هذه المقاربة راجين أن يدرس، في نطاق تواصل حقب حضارية ماضية وحاضرة ومستقبلة، للخروج من هذه الانفصامية (الاشتراك عند القدماء) الفكرية والمصطلحية، والولوج إلى صميم الفعل والإنتاج.

الحواشـــي

1- تبلغ الزوائد (affixes): من صدور (préfixes) وأحشاء (infixes) ولواحق (suffixes) في اليونانية واللاتينية ما قدره (700) زائدة.

أما الزوائد التي اهتم بها مجمع اللغة العربية بالقاهرة فهي لا تتجاوز المائة حسبما أحصينا في مؤلفنا " أعمال مجمع القاهرة" بيروت 1988-دار الغرب الإسلامي- ولقد بلغت ما يقرب من 650 زائدة، مترجمة أو معربة، من وضع المجامع والاختصاصين مما يؤهل العربية اليوم لتجاوز مشكلة الزوائد اللاتينية واليونانية، كما جاء ذلك في "مؤلفنا المنهجية العامة لوضع المصطلحات وتوحيدها" – دار الغرب الإسلامي، بيروت 1986.

2- لقد أضافت الفرنسيّة والإنجليزية على الزوائد اليونانية زوائد من صلبها الحديث أعدادها وفيرة، منها ما يزول أو يتجدد ومنها ما يبقى ويتجذر. ويا ليت العربية وظفت زوائد مشتركة مثل "يت" في عفريب و"اجى" في قهواجي وأخذت من العربية الاجتماعية الشعبية ما يمكن تنظيمه واستعماله لحاجات علمية متفق عليها.

3- وترجمتها: "لننظم من رؤى جديدة أبياتاً عتيقة".

4- ونعني بالنظمنة (systématisation) أن نخصص أكثر فأكثر صيغاً لأداء معانٍ ومفاهيمَ ثابتةٍ، مثلما هو الشأن في اليونانية واللاتينية. **وذلك ما سعى القدماء العرب** إلى إقراره من خلال معاني مزيدات الفعل مثلا. ولقد نحا مجمع اللغة العربية بالقاهرة هذا المنحى في العديد من قراراته.

5- القرآن الكريم: سورة البقرة 31/2. وفي مزهر السيوطي جدل كبير في تخريج هذه الآية بين أهل التوقيف وأهل الاصطلاح. وابن جني ينتسب إلى الحزب الثاني منهما طبعاً.

6- ونذكر منها مجمع اللغة العربية الأردني، وبيت الحكمة بتونس، وأكاديمية المملكة المغربية، ومعهد اللغة العربية بالسودان وبليبيا، ومكتب تنسيق التعريب بالرباط التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.... إلخ.

7- من لائحة مجمع اللغة العربية بالقاهرة الصادرة في المجلد الأول من مجلة "المجمع سنة 1934.

8- محمد رشاد الحمزاوي: نظرية النحت العربية- دار المعارف سوسة- الجمهورية التونسية- 1998، حيث برّزنا الرأي وبيّنا هذه النظرية، انطلاقاً من معجم المقاييس الذي ظل مخطوطاً مغبُوناً مدة 14 قرناً حتى حققه عبد السلام هارون في العقد الثاني من القرن العشرين.

9- شاركت في الندوة المذكورة ما يقرب من 16 مؤسسة من مجامع ووزارات ودوائر ولجان، بناء على اقتراح من وزير التربية الوطنية وتكوين الأطر في المملكة المغربية. وأتذكر أن أعمالها قد قطعت فجأة في يومها الأول من دون أن نعلم أسبابها العميقة.

10- أطلق عليها "الألسنية" كما بينت في إحدى مقالاتي، وقد سبق أن خصصت لترجمة "Dialectologie" ثم تحولت وجهتها وتهاطلت عليها منافسات أخرى مثل الألسُنيات، واللّسْنيّات وعلم اللسان واللسانيات...إلخ.

11- أحمد الشرقاوي إقبال: معجم المعاجم، دار الغرب الإسلامي بيروت 1987 ص66-89، حيث يزودنا بالمعلومات المذكورة أعلاه.

12- وتمثل هذه الأعمال مصادر ومراجع تستوجب الاعتماد على مناهجها ونتائجها في سبيل عمل توثيقي وتدويني مطلوب.

بنیاد دایرة المعارف اسلامی

13- محمد رشاد الحمزاوي: المعجم العربي–إشكالات ومقاربات، بيت الحكمة تونس 1991 ص 113-136(مساهمة التراث العلمي العربي في تطوير العربية: مكانة مخصص ابن سيده من المعجمية العربية المعاصرة).

14- سبق لنا أن فصّلنا في هذه القضايا في مؤلفاتنا المختلفة ولا سيما في ما خصص منها للمصطلح والمصطلحية.

15- محمد رشاد الحمزاوي: النّظريات المعجمية العربية وسبلها إلى استيعاب الخطاب العربي – دار ابن عبد الله، تونس 1999، حيث نعرض لنظرية الخليل المعجمية وغيرها.